صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والتجسس

للاستاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

شُغف الخلفاء العباسيون بالتجسس ومالوا إليه . وقد كان لابد لهم من تسقّط الأخبار والحفول بها لئلا ينسبوا إلى الضعف والغفلة أو يجترئ عليهم الأعداء والأخصام . فإن من أخلاق الملك اليقظ السعيد على قول الجاحظ : البحث عن سرائر خاصته وعامته ، وإذكاء العيون عليهم ، والبحث عن كل خفي دفين[1] .

وبغداد ، وما كان فيها من أخلاط المخلوقات وأنماط الناس ، وما انتشر فيها من آراء سياسية وعصبية ، وما ظهر فيها من ميول شعوبية وعلوية وهاشمية كل هذا دفع الخلفاء إلى التجسس ولمّ الأخبار ليحفظوا ملكهم ويكونوا على بينة مما يجرى .

وقد ذكروا أن الرسول عليه السلام ، كان ، ليقظته يرسل الجواسيس والعيون يتحسسون أخبار أعدائه المشركين . ولم يكن عصر النبي عليه الصلوات ، كالعصر العباسيّ ، ولا كان المجتمع إذ ذاك ، كالمجتمع يومئذ . فليس من الغريب أن يشغف العباسيون بالتجسس ، فهو ضرورة من ضرورات المُلك .

كان التجسس يجرى على طريقتين : ظاهرة وخفية . أما التجسس علانية فكان يقوم به أصحاب الأخبار والبريد . وكانوا منتشرين في كل مكان ، وكان عليهم أن يعرفوا حال عمال الخراج والضياع ، وأن يتتبعوا ذلك تتبعاً شافياً ، ويستشفوه استشفافاً بليغاً ، وأن ينهوه على حقه وصدقه . وأن يعرفوا حال عمارة البلاد ، وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجرى في أمور الرعية فيما يُعاملون به من الانصاف والجور ، والرفق والعنف ، فيكتبوا به مشروحاً . وأن يعرفوا ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم ، وأن يعرفوا حال دار الضرب وما يُضرب فيها من العين والوَرِق ، وما يلزمه المورّدون من الكاف والمؤن . وفي كل ما ينهونه ينبغي أن يكونوا صادقين واثقين مما يُنهون . فإذا ورد كل ذلك على الحضرة سُلّم إلى صاحب ديوان الانشاء ليحمله إلى حيث يطلع عليه الخليفة ويأمر بما يرى ، ثم يكتب للآفاق بما ينبغي[2] .

فهؤلاء كانوا جواسيس رسميين ، أما الجواسيس الذين لا يظهرون أنفسهم ، ولا يعرفهم أحد ، فكانوا أنواعاً متنوّعة ، تفنن الخلفاء في استخدامهم . وكان فيهم « الطفل والمرأة والمحتاج والزّمِن وابن السبيل ... »[3] .

وأول من عُني بالتجسس الخفيّ من الخلفاء : أبو جعفر المنصور « فقد كان يشترى رقيقاً من الرقيق ، ثم يُعطى الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، فيهيمون ، أو يَردون الماء كالمارين وكالضالين فيتجسسون ... »[3] .

ويحدثنا الطبري أن أبا جعفر أتى مرّة بأحد جنده فقال له : « اخف شخصك واستر أمرك واتني في يوم كذا في وقت كذا . فأتاه ، فقال له إن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيداً لملكنا واغتيالا له ، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يُكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف من ألطاف بلادهم . فاخرُج بكُسيّ وألطاف وعينٍ حتى تأتيهم متنكراً بكتاب عن أهل هذه القرية ، ثم تسير ناحيتهم . فان كانوا قد نزعوا عن رأيهم فأحببْ والله بهم وأقرب . وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر . فاشخَصْ حتى تلقى عبد الله بن حسين متقشفاً متخشعاً ، فإن جهلك وهو قاعل ، فاصبر وعاوده . فان عاد فاصبر حتى يأنس بك ، وتلين لك ناحيته ، فان ظهر لك ما في قلبه فاعجل عليّ ... » فشخص الرجل حتى قدم على عبد الله فلقيه بالكتاب فأنكره ، ونهره . وقال ما أعرف هؤلاء القوم . فلم يزل ينصرف ويعود حتى قبل كتابه وألطافه ، وأنس به . فسأله الجواب . فقال : أما الكتاب فإني لا أكتب لأحد ، ولكن أنت كتابي إليهم ، فأقرئهم السلام ، وأخبرهم أن ابنيّ

(١) التاج في أخلاق الملوك ص ١٦٢ .

(١) كتاب الخراج لقدامة (دي غوية . ص ٢٨ — ٣٢ ، ٧٨٤ ، ١٨٠

(٢) كتاب بغداد لطيفور .

(٣) الطبري حوادث سنة ١٤٤ .

خارجان لوقت كذا وكذا فعاد الجاسوس إلى أبي جعفر وأخبره[1].

وحدّث صاحب عذاب أبي جعفر قال : دعانى أبو جعفر ذات يوم ، وإذا بين يديه جارية صفراء ، وقد دعا لها بأنواع العذاب ، وهو يقول لها : ويلك أصدقيني ، فوالله ما أريد إلا الإلفة ، ولئن صدقتِني لأصِلنّ الرحم، ولأتابعن البرّ إليه . وإذا هو يسائلها عن محمد بن عبد الله ، وهى تقول : ما أعرف مكانه . ودعا بالدهق وأمر به فوُضع عليها . فلما كادت نفسُها أن تتلف قال : أمسكوا عنها ، وكره ما رأى . وقال لأصحاب العذاب : ما دواء مثلها إذا صار إلى مثل حالها ؟ قالوا : الطيب تشمه ، والماء البارد يصبّ على وجهها ، وتسقى السويق . فأمر لها بذلك ، وعالج بعضه بيده ، حتى أفاقت ، وأعاد عليها المسألة ، فأبت إلا الجحود . فقال لها : أتعرفين فلانة الحجّامة ؟ فاسود وجهها وتغيّرت . فقالت نعم يا أميرالمؤمنين، تلك فى بنى سُليم. قال : صدقت ، هى والله أمّتى ، ابتعتها بمالى ، ورزق يجرى عليها فى كل شهر أمرتها أن تدخل منازلكم ، وتحجمكم ، وتعرف أخباركم . أوَتعرفين فلانا البقّال ؟ قالت نعم ، هو فى بنى فلان . قال : هو والله مضاربى بخمسة دنانير أمرته أن يبتاع بها كل ما يحتاج إليه من البيوع . فأخبرنى أن أمة لكم فى يوم كذا من شهر كذا ، صلاة المغرب ؛ جاءت تسأله حناء وورقاً ، فقال لها : ماتصنعين بها؟ فقالت : كان محمد بن عبد الله فى بعض ضياعه بناحية البقيع ، وهو يدخل الليلة ، فأردنا هذا لتتخذ منه النساء مايحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب .

(قال) : فأسقط فى يدها ، وأذعنت بكل ما أراد[2] .

وهذه القصة والتى قبلها تبينان لنا كيف سخّر أبو جعفر أحد جنده ، وأمته ، وبقالا مضاربا له ، للتجسس وجمع الأخبار

ولعلك تعلم حبه تتبع الأسرار مما سأقصه عليك . قالوا : إن أبا جعفر قال ذات يوم لأصحابه : ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر لايكون أعف منهم ، وهم أركان الدولة ، ولايصلح المُلك إلا بهم . أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوىّ ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية . ثم عرض المنصور على إصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول فى كل مرة : آه ، آه ! قيل ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة[1] .

* * *

وكان الرشيد من أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته ، وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً[2] . وكان يتسقط أخبار الهادى قبل أن يصبح هو خليفة ؛ فقد كان مسرور الكبير فى خدمة المهدى ، وكان الرشيد حفياً به محسناً إليه . فلما انتقل أمر الخلافة إلى الهادى قال له الرشيد : أخى قوىّ الشراسة ، وأنا أخاف إيقاعه بى ، وجمعَ الناس على بيعة ابنه بعده . وأنا على غاية الثقة بك فاعدل إليه ، وكن له عيناً عليه » فتقدم مسرور عند الهادى حتى تولى ستر بيت خلوته فكان يُنهى إلى الرشيد كل كلمة من كلامه ، وفعل ...[3]

وكتب الأدب والتاريخ مترعة بأخبار تتبعه أسرار رعيته حتى كان ذلك يدفعه إلى إخفاء شخصه ، والطواف مع جعفر ابن يحيى فى الأسواق وبين الأحياء ، ليتسقط الأخبار ، ويعرف مايدور بين الناس من الأحاديث ويستطلع مالا يصل إليه خبره[4].

ولم يقنع بأسرار رعيته ، بل وكل عيوناً على ولديه .. فكان مسرور الخادم رقيب المأمون ، وكان جبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين[5] .

* * *

وعلى نحو هذا كان المأمون فى أيامه . ذكر أبو الفرج أنه لما تولى الخلافة وأتى بغداد ، كان يتجسس على إبراهيم بن المهدى فألزمه رجلا ينقل إليه كل مايسمعه من لفظه جداً أو هزلا[6] .

ويسوق الجاحظ دليلا على تتبع المأمون أسرار رعيته رسالته إلى إسحق بن إبراهيم فى الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام ،

(١) الطبرى حوادث سنة ١٤٤

(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقى ص ١٦٠ (طبعة أوروبية) .

(١) التمدن الاسلامى ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) التاج ص ١٢٠ .

(٣) المكافأة وحسن العقبى (تحقيق محمود محمد شاكر) ص ٦٣ .

(٤) الأغانى مثلا ج ٦ ص ١٣٢ .

(٥) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٨٣ .

(٦) الأغانى ج ٢٠ ص ٨٢ .

التي خبّر فيها عن عيب واحد واحد ، وعن حالته وأموره التي خفيت ، أو أكثرها ، عن القريب والبعيد[١] .

وقد ذكر صاحب محاضرات الأوائل أنه كان للمأمون ألف عجوز وسبعماية ، يتفقد بهن أحوال الناس من الأشقياء ومن يحبه ويبغضه ، ومن يفسد حُرَم المسلمين . وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن وأنه كان يدور ليلا ونهاراً مستتراً .

وقد يكون هذا الخبر صحيحاً فيما يتعلق بإرسال العجائز ، أما عددهن وأنه كان لايجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن ففيه مبالغة .

وكان المأمون يُعنى بمعرفة أحوال عُمّاله . فكان يفحص عنهم ، وعن دفين أسرار حكامه فحصاً شافياً ؛ فلا يخفى عليه ما يفيد كل امرىء وما ينفق ، وكان من نأى عنه كمن دنا منه ، في بحثه وتنقيره ، وكان يتتبع أحوال القضاة والولاة والجند[٢] . فذكروا أنه سأل يوماً جماعة : من أنبل من تعلمون نبلا وأعفهم عفة ؟ فذكر كلٌّ من يراه . فقال : لا ، ذاك عبد الله بن طاهر دخل مصر كالعروس الكاملة : فيها خراجها ، وبها أموالها جمة ثم خرج عنها ، فلو شاء أن يخرج عنها بعشرة آلاف دينار لفعل ؛ وقد كان لي عليه عين ترعاه ، فكُتب إليّ أنه عُرضت عليه أموال لو عُرضت عليّ لشرهت إليها نفسي ، ولقد خرج عن ذلك البلد وهو بالصفة التي قدمه فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس[٣] .

وحدّث بشر بن الوليد قال : كنتُ عند المأمون ، فقال : ولينا رجلا قضاء الأُبلّة ، وأجرينا عليه في الشهر ألف درهم ؛ وما له صناعة ولا تجارة ولا مال قبل ولا بيتاً ابتناه ، وولينا رجلا آخر قضاء دمشق وأجرينا عليه ألف درهم أشار به عليّ محمد بن سماعة ، فأقام بها أربعة عشر شهراً فوجهنا من يتتبع أمواله في السر والعلانية ، ويتعرّف حاله ، فأخبر أنه وجد ماظهر من ماله في هذا المقدار من دابة وغلام وجارية وفرش وأثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار . وولينا رجلا أشار به فلان نهاوند فأقام بها أربعة وعشرين شهراً ، فوجهنا من يتتبع أمواله ، فأخبرنا أن في منزله خدماً وخصياناً بقيمة ألف وخمسمائة دينار سوى نتاج قد اتخذه[١] .

وحدّث إبراهيم بن السندي أنه جالس المأمون ومعه إبراهيم ابن المهدي فطفق المأمون يحدّث عن أهل عسكره ، حتى والله لو أن رجلا أقام في رحل كل رجل من الجند حولا ، لما زاد على معرفته لشدة تنقيره وتتبعه أخبار الناس[٢] .

فهذه الحوادث التي سردناها ، تدل على حبه التجسس ، ودسّ الناس ليتسقطوا له الأخبار ، ويطلعوه على ما يشاء .

(له بقية) صلاح الدين المنجد

(١) التاج : ص ١٢٠ .
(٢) المحاسن والمساوىء ص ١٦٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(١) المحاسن والمساوىء ص ١٦٣ .
(٢) تاريخ بغداد لظفور ص ١٠٠

مطبعة الرسالة

تقدم قريباً

الطبعة الثانية من كتاب :

في أصول الأدب

محاضرات ومقالات في الأدب العربي

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

وقد أضيفت إليه فصول لم تنشر